العـرافـة

يحكى أنه كانت هناك امرأة تحمل في طياتها الكثير من الخبِّ، كانت امرأة متوسطة القدّ، هزيلة الجسدّ، ملتحفة، وجهها تجعد قليلا، ربّما قد تجاوزت الخمسين من العمر بسنوات، عيناها قد انغرستا في جمجمتها، فشكلها يروع قد يربك للوهلة الأولى، لكن إذا سمعت كلامها سحرتك حلاوته لتنسى مساوؤها، إنّها قارئة الطالع.

تحمل صرّة تضمها إلى صدرها، فهي كلها قد صرّت في ثوب الخديعة، كانت تدّعي أنّ لها القدرة على معرفة الغيب والتنبؤ على ما سيصيب، حيث كانت تطوف الشوارع وتقرع الأبواب، فمن تسعى لحماية نفسها لا تفتح الباب غالقة أذنيها كأنّها لم تسمع شيء فتصون بذلك نفسها.

وهناك من البيوت ولحسن حظها من يخرج أهلها فمنهم من يذهب لقضاء شؤونه، ومنهم من يذهب إلى العمل، والبقية إما بالمدارس أو الجامعات أو الشوارع والمقاهي، وبيوت تقع في شراكها.

في يوم من الأيّام، وبينما هي مارة بأحد الأحياء كعادتها كان هناك فتى لم يتجاوز سنه الثانية عشر، ولم يسعفه الحظ للإلتحاق بالمدرسة، فوالداه أهملاه تاركين للشارع مهمة تنشئته.

اقتربت منه العجوز بكل مكروخداع وأعطته قطعة شوكولاطة

بغية الوصول إلى هدفها، فراحت تسأله بداية ما اسمك يا بني ؟ فأجابها الصبي اسمي بلقاسم، وأين تسكن؟ فأشار بيده إلى إحدى أبواب الحي، ثم قالت له: وهل هناك من أحد في البيت ؟

فبدأ يتكلم ببراءة الطفولة عن أسرار البيت، إن أمي تغسل الملابس، ومعها جدتي تحضر الفطور، أتعرفين يا خالة إنّه طبق الفاصولياء الذي أحبه، إنهنّ بمفردهن في البيت، لأنّ عمي قد خرج باكرا إلى الصيد ولن يعود إلاّ بعد الظهيرة، بينما أبي إنّه غائب منذ أسبوع فقد رافق جدي في رحلته إلى الصحراء، فجدي يحبّ قضاء فصل الربيع هناك، ولن يعودا إلا مع حلول الصيف.

هكذا عرفت المرأة العجوز أسرار البيت وخباياه من وراء الطفل المسكين مستغلة براءته.

طرقت الباب الذي أرشدها إليه الطفل بلقاسم، ففتحت عليها والدة الطفل، فقالت لها المرأة أريد حماتك، فلم تشك في أمرها، وراحت تنادي حماتها التي أدخلت تلك المرأة إلى فناء البيت.

وبدأت متحدثة، لقد ساقني إلى هذا البيت أمر مهمّ، إن زوجك وابنك في الصحراء وكلاهما في خطر.

فانبهرت الحماة لِمَا سمعته، وتعجبت لأمر المرأة كيف علمت بغيابهما، وبكل بساطة استسلمت للخدعة وصدقت الأكاذيب، وطلبت منها أن تخبرها المزيد.

قالت صاحبة المكرِ للحماة: إنّ الثمن غال وعليك أن تختاري،

فلن أخبرك بالمزيد حتى تدفعي الثمن.

قالت الحماة: وكم تريدين فأنا مستعدة لأدفع أي شيء.

أجابت العجوز: كل ما تملكين من ذهب، فراحت المسكينة تجمع ما لديها وأعطته لتلك المرأة.

يبدوا أنّ الشمطاء لم تقنع، نظرت إلى الكنّة التي كانت مغروسة في شغلها لا تبالي بما يجري حولها. وقالت: وهاته أليس لديها ما تقدمه؟ أجابت الحماة ليس لديها سوى ذلك الحلق الذي في أذنيها، فردت الماكرة: مهما يكن فعلى الأقل تضحي بشيء، فطلبت الحماة من الكنّة أن تستسلم لطلب العجوز.

وضعت المرأة الصيغة في صرة وراحت تعركها ببعضها. قالت الآن هما في مأمن ثم اتجهت قبل الباب وانصرفت مواصلة سيرها بحثا عن فريسة أخرى، لتترك تلك العائلة في جوّ يسوده نوعا من الغيوم، حينئذ اتصل الجد ليخبرهم بأن «ابنه» قد لدغته عقرب ولم يستطع إنقاذه فمات.

الجزائر (مستغانم) ٢٠٠٨/٠٧/٢٦
١٥:٣٠

تشاء السنين أن أعود في جوّ السفر من منطلق لست عدوي